اختلاف المؤرخين في تحديد نهاية الدولة المدرارية في بلاد المغرب

أ.م.د. سادسة حلاوي حمود
جامعة واسط / كلية التربية

مقدمة:

أصبحت ارض المغرب الإسلامي بصورة عامة أرضاً خصبة لوجود الخوارج وممارس ة نشاطاتهم الأمر الذي تكلل فيما بعد بقيام دويلات لهم ، فكانت الدولة المدرارية التي قامت سنة ٤٠ هـ إحدا ها . و ن هذه الدولة قد شابها الغموض والاختلاف في كتب المؤرخين . ولكشف هذا الغموض ؛ ارتأينا أن تكون عنوانا لبحثنا هذ قسمنا إلى مبحثين تناول الأول (الدولة المدرارية ونشأتها)) والثاني (سقوط الدولة المدرارية من وجهة نظر المؤرخين) . ؛ استعرضنا العديد من المصادر والمراجع في هذا البحث منها كتاب ابن عذارى المراكشي (البيان الم غرب في أخبار الأندلس والمغرب)) الذي تناول تاريخ الدولة لمدرارية وظروف سقوطها ، و الكامل في التاريخ لابن الأثير الذي افرد صفحات للكلام عن الدولة المدرارية وتاريخها وغيرها من المصادر والكتب الأخرى .

أولا. قيام الدولة المدرارية (١٤٠هـ):

بعد انتشار المذهب الصفري في القسم الجنوبي الغربي من المغرب على أيدي بعض الخوارج الذين لج وا إلى هذه النواحي ا بعيدة عن أعين الدولة الأموي ؛ اعتنق الكثير من أهل تلك المناطق هذا المذهب وشا وا في ثورة سرة الخارجي حينما قامت سنة ٢٢ هـ .

وكان زعيم الصفرية في تلك النواحي عيسى بن يزيد الأسود المكناسي الذي كان صاحب ماشية وكان كثير ر ي في المنطقة التي بنيت عليها فيما بعد مدينة سجلماسة وهذا الموضع كان العديد من البربر يترددون عليا ، ونزل عيسى هناك سنة ٣٨ هـ واجتمع عليه الكثير من القبائل البربرية وخص وصاً من قبيلة زناتة وسكنوا معه في الخيام [٢] وكان

---

[١] حسين مؤنس، م الم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢١ .
[٢] لسان دين بن الخطيب، أعمال الأعلا ص ١٣٨ .
[٣] ابن عذ ء ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ا ص ١٥ .

عددهم يتجاوز الأربعة آلاف شخصاً فبايعوه جميعاً وجعلوه أميرهم وشرعوا بتخطيط مدينة سجلماسة ٤٠ هـ) ومن هذا الاجتماع نشأت دولة بني مدرار . بقي عيسى أميراً عليهم مدة خمسة عشر سنة إلا أن أهل سجلماسة نقموا عليه فأخذوه وشدوا وثاقه إلى شجرة وطلوه بالعسل وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل سنة ٥٥ هـ . و تفقوا على تنصيب أبو القاسم ن سمغوبن واسول المكناسي ، والملقب بمدرار ٥٥ ـ ٦٧ هـ ، أميراً عليهم ويذكر ابن خلدون انه كان حدادا في الربض من قرطبة وخرج منها بعد وقعت الربض منه من الخوارج الاباضية الصفرية ، وقد خطب حين تولى الإمرة في سجلماسة للمنصور العباسي وبعده للمهدي ابنه . وقد توفي سنة ٦٧ هـ وخلفه ابنه الياس الملقب بالوزير إلا أن أهل سجلماسة ثاروا عليه وخلعوه سنة ٧٤ هـ ، نصبوا مكانه أخاه اليسع بن أبي القاسم الملقب بأبي منصور ١٧٤ ـ ٠٨ هـ .

ويعد اليسع المؤسس الحقيقي لدولة بني مدرار في عهده استفحل ملكهم في سجلماسة التي تم بنائها في عهده واختط بها المصانع والقصور ، ويقول ابن عذاري عنه : كان جباراً عنيداً فظفر بمن عانده من قبائل البربر قهرهم وأظهر الصفرية وأخذ خمس معادن درعه وعظم قدره في ذلك الوقت ، وهو الذي بنى سور سجلماسة وانتقل اليها سنة ٩٩ هـ) .

وفي أيامه ازدهرت سجلماسة وأصبحت حاضرة للدولة وقد توفي سنة ٠٨ هـ ، وتولى بعده ابنه مدرار ولقب بالمنتصر وكان له ولدان كل منهما اسمه ميمون أحدهما من زوجته أروى بنت عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت والأخر من امرأة اسمها بقية أو بقي وكان يعرف بالأمير ، وكان المنتصر يميل إلى ابن الرستمية وقد تنازعا في حياة أبيهما نشبت بينهما حرب استمرت ثلاث سنوات تغلب فيها ابن أروى واستولى على الإمارة غير أنه أساء السيرة واستبد بالأمر فخلعه أهل سجلماسة وأعادوا أباه المنتصر الا أنه أخذ يميل من جديد إلى ابن الرستمي ، الأمر الذي أدى بأهل سجلماسة أن يخلعوه وأقاموا ابنه ميمون ابن بقية وقد توفي أبوه المنتصر في إمارته سنة ٥٣ هـ ، وظل ابنه ميمون قائما بأمارته حتى توفي سنة ٦٣ هـ .

) ابن الخطيب، المصدر السابق ص ١٣٩ .
) العبر ، ص ٦٨ .
) المصدر نفسه .
) السلاوي الناصري ، استقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، ص ٧٩ .

وتولى بعده محمد بن ميمون وكان اباضياً ولم يطل عهده ، فقد توفي سنة ٧٠ هـ فتولى بعده عمه اليسع بن المنتصر وفي أيامه قدم عبيد الله المهدي وابنه أبو القاسم من المشرق فدخلا متنكرين وكان الخليفة المعتضد بالله العباسي قد أوعز إلى اليسع بالقبض عليها فأخذهما وسجنهما فزحف إليه أبو عبد الله الشيعي وتمكن من هزيمته وقتله سنة ٩٧ هـ وخلص المهدي وابنه وأقامة على سجلماسة ابراهيم بن غالب المزابي من قبيلة كتامة[٩].

إلا أن أهل سجلماسة بايعوا الفتح بن ميمون أميراً وكان اباضيا بعد عودة عبد الله الشيعي إلى افريقيا وتمكنوا من قتل إبراهيم بن غالب بعد مرور ٥٠ يوم فقط على انصراف أبو عبد الله الشيعي من سجلماسة وقد لقبوه بالرسول وذلك في سنة ٩٨ هـ وبعد انقضاء أقل من سنتين توفي في سنة ٠٠ هـ فخلفه أخوه أبو العباس أحمد على إمارة سجلماسة واستقام أمره في البلاد إلا أن عبيد الله المهدي لم يترك وجه إليه مصالة بن حبوس الفهاجي على رأس جيش كثيف من بربر كتامة ومكناسة فحاصر سجلماسة وافتتحها عنوة وقتل و العباس أحمد وأرسل رأسه إلى عبيد الله المهدي سنة ٠٩ هـ[١٠].

ورأى مصالة بن حبوس أن يقيم على سجلماسة أميرا من آل مدرار بقصد الحد من ثوراتهم فأقام المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار ، وكان المعتز يدعو للفاطميين ، ولما توفي سنة ٢١ هـ) خلفه ابنه محمد الملقب بأبي المنتصر واستقام ملكه عشر سنوات وتوفي سنة ٣١ هـ[١١] ، ثم تولى بعده ابنه المنتصر وكان صغيرا لا يتجاوز الثالثة عشر من العمر، فوثب عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار سنة ٣٢ هـ وأخرج المنتصر من سجلماسة وقطع الدعوة للفاطميين و دعى إلى نفسه وتسمى بأمير المؤمنين ولقب بالشاكر لله ، ورفض الخارجية وأخذ بمذهب أهل السنة واتخذ السكة باسمه ولقبه وكانت تسمى الدراهم الشاكرية[١٢]. وكان عادلا ، حسن السير ، ظل يقوم بأمر سجلماسة وما يليها حتى زحف إليه جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٤٧ هـ) فحاصر سجلماسة ثلاثة أشهر وفرّ الشاكر لله في جماعة من أهله وخاصته وتحصن بحصن من حصون سجلماسة تبعد عن خبنحو اثنا عشر ميلا . أما جوهر فدخل مدينة سجلماسة ، ويذكر ابن الخطيب أن الشاكر لله خرج من حصنه في نظر أصحابة يتجسس الأخبار ودخل سجلماسة متنكرا فغدر به قوم من مطغرة فقبض علية جوهر وحبسه في قفص خشبي وحمله

٩) ابن عذاري، المصدر السابق، ، ص ٢١٧.
١٠) السيد عبد العزيز سالم، تأريخ المغرب الكبير، ، ص ٢٨٨.
١١) سوادي عبد محمد، تأريخ المغرب الإسلامي ، ص ٢١.
١٢) ابن خلدون، العبر، ، ص ٤٢.

إلى القيروان ثم سجنه في رقاده حتى توفي سنة ٥٤ هـ) وبموته انقرض ال مدرار أمراء سجلماسة[٢].

ثانيا. سقوط الدولة المدرارية من وجهة نظر المؤرخين:

اختلف المؤرخون والباحثون في تاريخ سقوط الدولة المدرارية ، ومع أننا في المبحث الأول ناولنا تاريخ الدولة حتى سنة ٥٤ هـ ارت الباحثة أن خصص هذا المبحث لمناقشة آراء المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الإمارة، وتكلموا عن سقوطها ، ان ناقش ذلك في مبحث مفصل واثبات أن المؤرخين القدامى يميلون إلى جعل تاريخ سقوط الدولة المدرارية في سنة ٩٧ هـ) وما بعد هذا التاريخ تمر الد ولة المدرارية بمرحلة التبعية للفاطميين حتى استيلاء الشاكر لله على السلطة من المنتصر الصغير والذي دعا لنفسه عندما اغتصب السلطة من المنتصر ، وأول من يذكر س قوط الدولة المدرارية في عام ٩٧ هـ وزوال ملكهم هو ابن الأثير إذ يقول : (فلما ظهر المهدي أقام بسجلماسة أربعين يوم ، وسار إلى أفريقيا واحضر الأموال من انكجان، فجعلها أحمالا وأخذها معه ووصل إلى رقاده في العشرة الأخيرة من ربيع الآخر من سنة سبع وتسعين ومائتين، وأزال ملك بني الأغلب وملك بني مدرار الذين منهم اليسع وكان لهم ثلاثون ومائة سنة منفردين بسجلماسة وأزال ملك بني رستم ، ولهم ستون ومائة سنة تفردوا بتاهرت وملك المهدي جميع ذلك)[٣].

ويتبين لنا من كلام ابن الأثير ت ٦٣٠ هـ ، أن سنة ٩٧ هـ هي سنة سقوط الدولة المدرارية رغم بق ها إلى سنة ٥٤ هـ اذ انه لا يعتبر استمرارها بعد دخول الفاطميين كدولة قائمة والدليل انه يح جم عن ذكر ما جرى بعد ذلك من أحداث ولا يتناولها في تاريخه ، إذا ما نفهمه من هذا النص أن السقوط كان سنة ٩٧ هـ وما بعدها كانت تابعة فيه للدولة الفاطمية عندما عاد مصالة بن حبوس لقمع ثورة بني مدرار بعد خروجهم أي الفاطميين منها عمل على تعيين احد أفراد البيت المدراري يضمن عدم ثورتهم والخطبة تكون للفاطميين وهو ما فعله بتعيين المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار وبقي الحكم في عائلته حتى قيام الشاكر بالوثوب على الحكم سنة ٣٢ هـ[٤]. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه .

كما أكد ابن عذاري المراكشي كان حيا سنة ١٠ هـ) ذلك القول : ((ثم زحف إليه عبد الله الشيعي من افريقية وفر أمامه ـ اليسع ـ وخرج عبيد الله المهدي من سجنه

---

٢) السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق ، ص ٨٩ .

٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ص ٣٨ .

٤) سوادي عبد محمد، تاريخ المغرب الإسلامي ، ص ٧١ .

بسجلماسة واستولى على المملكة ثم ظفر به في سنة ٩٦ هـ فقتله فكانت مدة اليسع بسجلماسة سبعاً وعشرين سنة ، وانقرضت دولة بني مدرار بسجلماسة وما والاه ا فكانت مائة سـ ة ونحو سنتين سنة)[١٥] .

ورغم أن ابن عذاري يجعل تاريخ سقوط الدولة المدرارية سنة ٩٦ هـ إلا انه يتفق مع ابن الأثير من أن آل مدرار انقرضوا نهائياً كدولة بعد دخول أبو عبد الله الشيعي لسجلماسة ، وانه يحسب عمر الدولة المدرارية بنحو مائة وستين سنة إذا علمنا أن تأسـسها كان بحدود ٤٠ هـ . لذا فهو يرى أن عمرها كان في حدود هذه السنين ، أما بعدها أي بعد سنة ٩٦ هـ) فهي ليست من عمر الدولة فقد اعتبرها ابن عذار ى مجرد ثورات على سلطة الفاطميين أو حكومة تابعة لها بعد تنصيب المعتز بن مدرار . أما المقريزي فانه يؤكد أن الدولة المدرار ية قد زالت عام ٩٦ هـ وهو يتفق مع ابن عذاري في ذلك ويقول : (وأقام عبيد الله المهدي بسجلماسة أربعين يوماً ثم سار رقاده سنة سبع وتسعين ومائتين وزال ملك بني الأغلب افريقية وملك بني مدرار من سجلماسة وملك بني رستم من تاهرت)[١٦] . ويؤكد المقريزي بقوله هذا أن ملك بني مدرار زال بعد دخول الفاطميين سجلماسة مما يؤكد ما ذهبنا اليه من أن الدولة المدرارية انتهت سنة ٩٦ هـ أو ٩٧ هـ على أكثر التقادير .

كما يؤكد ابن الابار (٥٨٠ هـ) هذا الرأي بقول : (وملك بني مدرار بسجلماسة مائة وستين سنة وملك بني رستم بتاهرت مائة وثلاثين سـ ة)[١٧] . وهذا نفس ما ذهب اليه ابن عذاري والمقريزي ، أي أن ملك بني مدرار انتهى كدولة مستقلة سنة ٩٦ هـ بعد دخول الفاطميين . كذلك أشار ابن خلكان إلى هذا الرأي بقوله ((وقيل أن المهدي لما وصل إلى سجلماسة ونما خبره إلى اليسع وهو آخر ملوك بني مدرار .. أخذه اليسع و عتقله فلما سمع أبو عبد الله الشيعي باعتقاله جمع حشداً كبيراً من كتامة وغيرها وقصد سجلماسة لاستنقاذ)[١٨] . وهذه الإشارة واضحة وتؤكد بأن اليسع بن مدرار هو آخر ملوك الدولة المدرارية . وعلى ذلك فأن ما تقوله وتؤكده هذه النصوص لهؤلاء المؤرخين أن مدرارية كانت دولة مستقلة قائمة بذاتها إلى سنة ٩٦ هـ) أو ٩٧ هـ) ثم سقطت عند دخول أبو عبد الله الشيعي سجلماسة لاستنقاذ المهدي وإعلانه خليفة وابتداء الدولة الفاطمية في نفس السنة . اما بعد ذلك فلا يمكن اعتباره تاريخا للدولة وقائما بذاته ، أما ما يذهب إليه المؤرخون

---

١٥) ابن عذارى ، البيان المغرب، ج ١ ص ١٦٠ .
١٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ، ص ١٤٩ .
١٧) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج ، ص ١٩٢ .
١٨) ابن خلكان، وفيات الاعيان ج ، ص ٢١٨ .

المحدثون كعبد العزيز سالم وحسين مؤنس وغيرهما من ان اعتبار تاري خ سقوط الدولة المدرارية سنة ٥٤ هـ على اعتبار أن المدة من ٩٦ هـ) إلى ٥٤ هـ) هي امتداد لتاريخ الدولة فهو ضعيف ودليلنا على ما ذكرناه من نصوص معتبرة لمج موعة من المؤرخين والذين ذكرناه .

وبناءً على ذلك نس طيع ا قول أن نهاية الإمارة المدرارية سنة ٩٦ هـ) أو ٩٧ هـ) على أكثر الأقاويل وما زاد ى هذه ا مدة أي بعد سنة ٩٦ هـ) هي مدة حكم غير مستقلة إذ تبعوا في ذلك الدولة الفاطمية حتى مجيء الشاكر لله سنة ٣٢ هـ) وقطع الخطبة للفاطميين ، لذلك لا يمكن اعتبار هذا ا غتصاب وإعلان الدولة مرة أخرى هو استمرار لها فضلا عن أن الشاكر لله نفسه قد رفض مذهب الخوارج واخذ بمذهب أهل السنة ، كما يذكر ابن خلدون [١٩] .

تأسيساً على ما تقدم لا يمكن اعتبار هذه المدة ـ أي فترة الشاكر لله ـ ضمن تاريخ الدولة المدرارية الصفرية الخارجية المذهب ، كون الدولة كانت على مذهب الخوارج والتغيير في المذهب يخرج ا عن دائرتهم قبل السقوط سنة ٩٦ هـ .

وفي الختام يمكننا القول ان المؤرخين لم يختلفوا في بداية وتأسيس الدولة الدرارية الا ان الاختلاف كان في سقوطها حيث اختلف المؤرخون وخاصة المحدثون منهم من ان سقوطه ا كان في سنة ٥٤ هـ وليس سنة ٩٦ هـ . حاولنا اثبات ذلك والقول انه ا سقطت عند دخول الفاطميين باستعراض اقوال المؤرخين ومناقشتها في ما تحصل لنا من معلومات وقد اثبتناه ولو من وجهة نظرنا ودونما افادنا من ادلة حصلنا عليها كما ناقشنا تاريخ الدولة واثبتنا ما راينا صائبا ..

مصادر ومراجع:

مصادر:

١ . ابن الأبار ، الحلة السيرا ، بيروت : دار الفكر ٩٤٨ ،) .

٢ . ابن أبي دينار ، المؤنس في ذكر أخبار افريقية وتونس ، بيروت : دار العل ٢٠٠٣ ، .

٣ . ابن ش كوال ، كتاب صـ ة بيروت : دار العلم للملايين ٩٩٨ ، .

١٩) العبر، ص ٢٧٠ .

٤. البكري ، المغرب في ذكر أخبار أفريقيا والمغرب القاهر : وزارة الثقافة والإرشاد، بلا تاريخ .

٥. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت : دار الكتب العلمية ٢٠٠٨ .

٦. الادريسي ، المسالك والممالك ، بيروت : دار الفكر ، بلا تاريخ)

٧. ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .. ، بيروت : دار الكتب العلمية ٢٠٠٦ .

٨. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، بيروت : دار العلم ٩٤٨ .

٩. السلاوي الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١)

١٠. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، بيروت : دار الفكر ، بلا تاريخ).

١١. لسان الدين بن الخطيب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، بيروت : بلا دار نشر ٩٤٨ .

١٢. القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، بيروت : بلا دار نشر ٢٠٠١ .

١٣. النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب، بيروت : دار الحرية ٢٠٠٧ .

١٤. المقريزي ، اتعاظ الحنفا في ذكر الفاطميين الخلفا ، بيروت : دار العلم ٢٠٠٧ .

مراجع:

١٥. حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، بيروت ٩٩٨ .

١٦. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني ، بيروت ٢٠٠١) .

١٧. جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ، بيروت ٢٠٠٣) .

١٨. محمود اسماعيل ، الخوارج في المغرب ، بيروت ، بلا تاريخ .

١٩. السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير بيروت ٩٨١ .

٢٠. سوادي عبد محمد ، تاريخ المغرب الإسلامي ، القاهرة ٢٠٠٣) .